البوصيـــــرى

بقلم الأستاذ على الجارم
مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف العمومية

هل لنا شعر مصرى نعتز به ؟ وهل كان لنا شعراء مصريون جديرون بالتقدير ؟ ذان سؤالان يدور حولهما فى هذه الأيام نقاش وحوار محتدمان ، فما هو وجه الصواب فى الأمر ؟

ذلك ما ندع الجواب عنه للأستاذ الجارم ، الذى سيتولى نشر خلاصة دراساته الخاصة فى هذا الموضوع الجليل ، مبتدئاً بدراسة « البوصيرى » الشاعر المصرى المعروف .

المحرر

مولده

ولد سنة ٦٠٨ هـ فى دلاص ، وهى قرية من قرى بنى سويف ، وكان أحد أبويه من بوصير ، والآخر من دلاص ، فركبت له نسبة من البلدتين ، فقيل الدلاصيرى ، ثم اشتهر بالبوصيرى .

ونحن نجهل كثيراً جداً من حياة البوصيرى ، وكلما لجأنا إلى كتاب نراه يفكو غموض سيرته ، وقلة ما يمكن أن يقال حول حياته ؛ فلسنا نعرف عن أبيه شيئاً ، ولسنا نعرف من نشأته الأولى شيئاً ، ولكننا نستطيع أن ندعى أنه انتقل إلى القاهرة فى أول شبابه لتلقى العلم ، لأنها أقرب مراكز العلم إلى بلدته ، فتلقى علوم العربية والأدب ، ووصل فيهما إلى غاية محمودة ، حتى ليخبرنا ابن حجر الهيثمى الذى شرح الهمزية : أن من تلاميذه الإمام أبا حيان الذى ولد سنة ٦٥٤ ، ومات سنة ٧٤٥ ، وكان إماماً فى النحو والتصريف والحديث ، ومنهم الإمام اليمنى فتح الدين بن سيد الناس ، وكان من كبار المحدثين ، ولد سنة ٦٦١ ومات سنة ٧٣٤ .

وكان مولد البوصيرى فى أيام الملك العادل ، سيف الدين أبى بكر ، وهو الرابع من ملوك بنى أيوب ؛ وكانت القاهرة — فى الوقت الذى يظن أن البوصيرى وفد عليها فيه — كثيرة المعاهد والمدارس ، تموج بعلماء العربية والفقه والحديث والتفسير ورجال الشعر والأدب .

ولسنا نعرف متى بدأ البوصيرى قول الشعر ، فإننا لا نجد فى الديوان الذى بأيدينا شيئاً قاله فى أيام الدولة الأيوبية ، وقد زالت وهو فى سن الأربعين ، وما صر من شعرائها عدداً غير قليل ، منهم ابن النبيه المتوفى سنة ٦٢١ ، وراجح بن اسماعيل الحلى المتوفى سنة ٦٢٧ ، وعمر بن

الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ ، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٥٤ ،واليها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ ؛ ولعله قال شعراً قليلا أو كثيراً فى الدولة الأيوبية لم يحفل الناس بجمعه .

شعره

ونستطيع أن نقسم شعر البوصيرى أقساماً ثلاثة :

القسم الأول: ماقاله فى مدح الوزراء والكبراء ، والثانى: ماقاله فى شئونه الخاصة ، وفيه كثير من الشكاية المرة أحياناً ،والفكاهة العذبة أحياناً أخرى، والثالث: ماقاله فى المدائح النبوية، وهذا القسم خير شعره وأجوده حقاً ، فإن اليون شاسع ، والمدى بعيد ، والفارق كما بين القطبين ، بين شعره فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشعره فى شئونه الأخرى، فهناك اللفظ الجذل والمعنى الشريف والأسلوب البديع والرنين الأخاذ والافتنان والسمو والإجادة، ولا نظفر بشىء من ذلك فى شعره الدنيوى إلا كما يظفر الضارب فى الصحراء القفر بوارد الماء ومنابت العشب بين حين وحين . والذى يقرأ مدائح البوصيرى فى الذات النبوية يشعر بقوة الإمام البوصيرى وروحانيته وتأثره الشديد بجلال ممدوحه ومقامه المحمود . ويحس أن الكلام ينبع من قلب الرجل ، ويخرج من نفس فنيت فى ممدوحها العظيم ،وحلقت فى جوكله صفاء ونور ، وسنفرد للكلام فى مدائحه هذه فصلا مسهباً .

القسم الأول:

يبدأ الإمام البوصيرى القصيدة بأبيات سهلة ، يقدمها بين يدى غرضه ، فقد يكون بها شىء من الغزل الصوفى أحياناً ، كقوله :

عرج برامتها إنها لمرامى ... وبجيرة فيها على كرام
نزلوا العقيق فأصبحى شوقاً إلى ... تلك الربى مثل العقيق دوام
ماللديار وللمحب كأنما ... هزجت حمائمه له بحمام
عهدى بها وكأن منهل الحيا ... دمعى وما اصفر اليها وسقام

ثم يسير على هذا الطراز حتى يتخلص إلى المديح تخلصاً سهلا خالياً من المهارة الفنية .

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها القاضى فخر الدين لقمان ،وكان من المتصلين به :

أريح الصبا هبت على زهر الربى ... فأصبح منها كل قطر مطيبا؟
أم الراح أهدت للرياح خمورها ... فأسكر مسراها الوجوه وطيبا؟
ألم ترنى هز التصابى معاطفى ... وراجعنى مارق من رونق الصبا
فن مخبرى ماذا السرور الذى سرى ... فلا بد حتما أن يكون له نبا
فقالوا أعاد الله للناس فخرهم ... لقمان وليا إلى كل القلوب محببا
فقلت : أخو الدين! قال لى: بلى ... قل له أهلا وسهلا ومرحبا

والمحاورة هنا جميلة فى قوله « فمن مخبرى ماذا السرور الذى سرى . . . الخ » وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على سهولة فى التخيل ، وقوة فى تصوير عاطفة طبيعية بعيدة عن التكلف ؛ وكثيراً ما يستطرد البوصيرى وينتقل من المدح إلى ذم كتاب الدواوين فى أيامه وتنقصهم ورميهم بالظلم والعسف ، ثم يعطف إلى إغراء الممدوح بهم ، ودعوته إلى القضاء عليهم وكف شرهم عن الرعية البائسة ؛ وهذه ظاهرة بارزة فى شعره فلا تخلو له قصيدة من النيل من هؤلاء الكتاب فى لغة جارحة ، وطعن مؤلم تمتزج فيهما مرارة الغيظ بشىء من الفكاهة القارصة . استمع إلى قوله فى قصيدة يمدح بها أحد كبار المماليك :

برئت من المستخدمين فغيرهم لصاحبه أعدى وأنكى من [illegible]

فلا تدن منهم واحداً منك ساعة ولو لاح من برديه ساطع [illegible]

ورد فؤادى بالتقادات منهم فقد كاد قلبى منهم يتفطر

نقدت بهم حظى شهوراً ولم أصل إلى حظهم حتى نقدت له [illegible]

ثم يقول :

أما فيهم لا بارك الله فيهم أخو قلم إلا يخون ويفجر ؟

ويظهر أن هؤلاء المستخدمين كانوا يماطلون ويسوفون فى إعطائه راتبه ، ولعل ذلك من أسباب نقمته عليهم ، ألسنا نراه يقول فى قصيدة أخرى :

من لم يقم لى منهم بوظيفتى جرسته بملامتى تجريسا ؟

وله قصيدة نونية طويلة فى هذا الموضوع كلها هجاء مؤلم ونقد لاذع .

وقد يستطرد فى قصائده إلى ذم الشعراء فى عصره ذماً قبيحاً فى جرأة وعنف كقوله :

ومهما رآنى شاعر متأسد تذاءب منى خيفة وتثعلبا

أراقب من عاشرت منهم كأننى أراقب كلباً أو أقارب عقربا

كأنى إذ أهديهمو من ضلالهم أبصر أعمى أو أقوم أحدبا

وكثيراً ما يكون البوصيرى ظريفاً جداً حينما يخرج من المدح إلى قص قصة أو سرد حكاية فى صورة تدل على التبسط مع ممدوحه ، وذلك كقوله فى غضون قصيدة :

عجيب لأمر آل بالشيخ مخلص إلى أن يعرى كاللصوص ويضربا

بكيت له لما كشفت ثيابه وأبصرت جسما بالدماء مخضبا

وحلفته بالله ما كان ذنبه ؟ فأقسم لى بالله ما كان مذنبا

ولكن حبيب راح فى مصدقاً كلام عدو مايزال مكذبا

فقلت : ومن كان الأمير حبيبه فلا بد أن يرضى عليه ويغضبا

فصبراً جميلا فالمقدر كائن فقد كان أمراً لم تجد منه مهربا

فإبليس لما كان ضداً لآدم تحيل فى عصيانه وتسببا

وقد كانت العقبى لآدم دونه فتاب الله عليه من بعد واجتبى

ومن قبل ذا قد كنت إن كنت ذاكراً — نهيت أن تلقى الأمير مقطبا
دعاك إلى أمر مهم بجبته — كأنك في عرس أتيت مخضبا
فلا تنس فينا للأمير قضية — فتفتح باباً للعتاب مجربا
وإياك أن تبطي على بوابه — فيبقى عليك اللوم منه مرتبا

فانظر إلى سخرية البوصيري في قص القصة، وكيف حوّل لنا ما أصاب خادم الممدوح الخاص من الضرب الشديد، وأن الذي ضربه هو الممدوح نفسه بوشاية واش كذوب، ثم انظر إليه وهو يؤنب الخادم لأنه استقل حظوته عند الأمير، فهو مرة يدخل عليه عابساً مقطباً، ومرة في حال تدل على زوال الكلفة وقلة الاحتشام، كأنه يقابل عروساً هو بها مغرم هائم، ثم انظر إليه كيف جعل هذه الحادثة سلماً لمطالبه عند الأمير، حتى إنه ليدخل في روع الخادم أنه إذا أهمل تذكيره براتبه جر عليه ذلك سخط الأمير نفسه. والبوصيري كثيراً ما يغمز في الشؤون العامة، وكثيراً ما يدعو إلى الإصلاح، وكثيراً ما ينصب نفسه لنصرة المستضعفين، وقد سقنا إليك طرفاً من ذلك في مهاجمته المستخدمين وغيرهم، فاستمع إليه الآن وهو يهجو الأعراب ويهزأ بهم، وقد كانوا يغيرون على البلاد ويعيثون فيها فساداً:

حنت إليه أناس لا خلاق لهم — اللؤم شيمتهم واللؤم والغدر
تلثموا ثم قالوا إننا عرب — فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا جدود لكم ترعى ولا ذمم — ولا بيوتكم شعر ولا وبر
وأي بدوية فيها بيوتكم — وهل من الشعر قولوا لي أو المدر
والبعض يحمي امرأ راموا أذيته — منهم فرار فقل كلا ولا وزر

ثم يقول للممدوح:

لما علمت بأن الرفق أبطرهم — والمفسدون إذا أكرمتهم بطروا
زجرتهم بعقوبات منوعة — وفي العقوبات للطاغين مزدجر
كأنهم أقسموا بالله أنهم — لا يتركون الأذى إلا إذا قهروا

ثم يعدد لنا أنواع العقوبات في زمنه فيقول:

فمعشر ركبوا الأوتاد فانقطعت — أمعاؤهم فتمنوا أنهم نحروا
ومعشر قطعت أوساطهم قطعاً — فما يلفقها خيط ولا إبر
ومعشر بالظبى طارت رءوسهم — عن الجسوم فقلنا إنها أكر
ومعشر وسط مثل الدلاء ولم — تربط حبال بها يوماً ولا بكر
ومعشر سمروا خلف الجياد وقد — شدت جسومهم الألواح والدسر

وآخرون ضحوا بالمال أنفسهم … وبات الناس خيراً من تحى عود

وبات سوء تلقوها بما صنعوا … ومن وراء تلقيهم لها صقر

وترى البوصيرى بعد ذلك لا يترك الكلام فى السياسة الخارجية للمملكة ، ولا يهمل التنويه بما يرفع شأن مصر ، ولا يغفل الإشادة بانتصارها فى ميادين القتال ، فهو يذكر فى إعجاب وزهو انتصار الجيوش المصرية بالشام وانهزام الروم ، فى قصيدة يمدح بها أحد كبراء الدولة فى عهد الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذى تولى حكم مصر سنة ٦٧٨ :

يخشون خيل المسلمين يصدها … عن العدو فى أرض العدو جنود

أما نزلت بالساحلات وجاءها … من الترك جيش لا يعد كثيرا

أتوا بجلوات من الجرد إن سرت … وجيش لهم مثل الجراد تمور

فلم يرقبوا من صرح هامان مرقباً … بهامته برد السحاب يكور

وصبوا عليه عارضاً من حجارة … وبلا وكل بالعذاب مطير

وساموه خسفاً من ثقوب كأنها … أثافيه لما ترك البروج قدور

فباتوا به من الحصار فأصبحوا … لهم ذلك الحصن الحصين حصير

وماذا يرد السور منهم وخلفه … من الخيل سور والصوارم سور

وليس لهم إلا إلى الأمير ملجأ … وإلا إليه ضرب الرقاب مصير

فلما أحسوا بأس أغلب همه … نذرا إليهم بالردى ويكود

دعوه وحبل النصر منهم ممزق … أماناً وجلباب الحياة قصير

فلا تذكروا ما كان بالأمس منهم … فذلك لأحقاد الصدور مثير

ولو شاء مد النيل سيل دمائهم … وزادت بحور ماءه وصدور

ولكنه من حلمه واقتداره … عفو عن الذنب العظيم غفور

ولم يبقهم إلا خبراً لمثلها … مليك يصيب الرأى وهو خبير

يرى الرأى مثل الراح يروى عتيقه … ويكرم منه الحلو وهو عصير

فولوا وسوء الظن يلوى وجوههم … فتحسبها سوراً وما هى سور

فلله سلطان البسيطة إنه … مليك بصير النصر حيث يسير

وهذه القطعة رائعة حقاً وهى وصف واف يصور تلك الموقعة تصويراً صادقاً ، ولا بد من استيفاء الحديث فى هذه الناحية فى عدد آخر ، فإنها من قصائده الجامعة .

على الجارم